

كلمتان للتريودي

القديس يوحنا ماكسيموفيتش

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

الابن الشاطر

"فَقَالَ أَضْعُرُهُمَا لِأَبِيهِ: يَا أَبِي أُعْطِنِي الْقِسْمَ الَّذِي يُصِيبُنِي مِنَ الْقَالِ. فَتَسَمَّ لَهُمَا مَعِيشَتُهُ" (لوقا ١٥: ١٢).

إن مثل الابن الضال درس مفيد للغاية للشباب. نرى في الابن الضال الشخصية الحقيقية للشباب الطائش: خفيف الذهن، غافل، متعطش للاستقلال؛ باختصار، كل ما يميّز عادةً غالبية الشباب. نشأ الابن الأصغر في منزل والديه. عند بلوغه سن المراهقة، بدأ بالفعل يتخيّل أن الحياة في المنزل مقيدة أكثر مما ينبغي. بدا له أن العيش تحت حكم أبيه وعين أمه الساهرة مزعج. أراد أن يقلّد رفاقه الذين استسلموا لمتع العالم. فكّر في نفسه "أنا وارث لضيعة. ألن يكون من الأفضل لو حصلت على ميراثي الآن؟ يمكنني إدارة ثروتي بشكل مختلف عن والدي". وهكذا انجرف الشاب الخفيف العقل إلى بريق ملذات العالم الخادع وقرر أن يتخلص من نير الطاعة ويغادر منزل والديه.

أليس كثيرون اليوم واقعون تحت وحي دوافع مماثلة، قد لا يغادرون منزل والديهم لكن ألا يخرجون من منزل أبيهم السماوي، أي من طاعة الكنيسة المقدسة؟

إن نير المسيح صعب ووصاياه مرهقة على العقول غير الناضجة. إنهم يعتقدون بعدم ضرورة الحفاظ على ما يأمرنا به الله وكنيسته المقدسة. بالنسبة لهم، من الممكن خدمة الله والعالم في نفس الوقت. إنهم يقولون "نحن بالفعل أقوياء بما يكفي لتحمل الأهواء والإغراءات المدمرة. يمكننا التمسك بالحقيقة والتعليمات السليمة بأنفسنا. اتركونا نحسن عقولنا من خلال اكتساب أنواع المعرفة المتعددة. دعونا نقوّي إرادتنا وسط الإغراءات والأهواء. بالتجربة سنتقن حواسنا بوقاحة الرذيلة!" هل هذه الرغبات أفضل من الطلب السيئ الذي طلبه الابن الأصغر من والده: "يا أبي، عطني القسّم الذي يصيبني من القال؟"

وهكذا، فإن الشباب الخفيف العقل لا يلتفت إلى وصايا وتحذيرات الكنيسة المقدسة. بل هو يكف عن دراسة كلمة الله وتعاليم الآباء القديسين، ويستمتع باهتمام إلى مغالطات أولئك الذين يدعون كذباً معلمين، وفي هذه المساعي يقتل أفضل ساعات حياته. يقلل من الذهاب إلى الكنيسة أو يقف هناك غافلاً مشتتاً. إنه يفوّت فرصة تكريس نفسه للتقوى والتمرّس في الفضائل، لأنه يقضي الكثير من الوقت في حضور العروض ووسائل الترفيه العامة وما إلى ذلك. باختصار، في كل يوم يسلم نفسه أكثر وأكثر للعالم وأخيراً يسافر إلى "بلد بعيد". ما هي نتيجة هذا التغرّب عن الكنيسة المقدسة؟ إنه نفس نتيجة مغادرة الابن الشاطر لبيت والديه. يضيّع الشباب الخفاف العقل بسرعة كبيرة طاقاتهم وما عندهم من مواهب الروح والجسد الممتازة، ويدمرون في الوقت الحاضر والأبدية كل الخير الذي فعلوه. في هذه الأثناء، يحدث "جوع شديد في تلك الكورة": الفراغ

وعدم الرضا، النتيجة الحتمية للملذات الشاردة. يظهر التعطش للمتعة، ويشتد مع إرضاء المشاعر الفاسدة، ويصبح في النهاية نهماً. غالباً ما يحدث أن محب العالم البائس، من أجل إرضاء أهوائه، يلجأ إلى الملاحظات الدنيئة والمخزية، التي لا تعيده إلى صوابه مثل الابن الشاطر ولا تردّه إلى طريق الخلاص، بل يتابع دماره الزمني والأبدي على حد سواء!

في التوبة

افتح لي أبواب التوبة يا واهب الحياة!

التوبة باليونانية metanoia. بالمعنى الحرفي تعني تغيير الفكر. بعبارة أخرى، التوبة هي تغيير في شخصية الإنسان وطريقة تفكيره؛ تغيير الذات الداخلية. التوبة هي إعادة النظر في وجهات النظر وتغيير الحياة. كيف يتحقق هذا؟ بنفس الطريقة التي تضيء بها أشعة الشمس الغرفة المظلمة التي يدخل إليها الإنسان. عند النظر في أرجاء الغرفة في الظلام، يمكنه تحديد أشياء معينة، ولكن هناك الكثير مما لا يراه ولا يشك حتى أنه هناك. العديد من الأشياء يدركها بشكل مختلف تماماً عما هي عليه بالفعل. عليه أن يتحرك بحذر، ولا يعرف ما هي العقبان التي قد يواجهها. ومع ذلك، عندما تُضاء الغرفة، يمكنه رؤية الأشياء بوضوح والتحرك بحرية. الأمر نفسه يحدث في الحياة الروحية. عندما نغمس في الخطايا، ويصير عقلنا مشغولاً فقط بالاهتمامات الدنيوية، فإننا لا نلاحظ حالة أرواحنا. نكون غير مباليين بما نحن عليه داخلياً، ونواصل السير على طريق خاطئ دون أن ندرك ذلك.

ولكن بعد ذلك يخترق شعاع من نور الله أرواحنا. ويا لها من قذارة نراها في أنفسنا! كم من الكذب، وكم من الباطل! ما مدى شناعة الكثير من أفعالنا التي تخيلنا أنها فائقة الروعة. ويصير واضحاً لنا أيّ هو الطريق الصحيح.

إذا أدركنا بعد ذلك تفاهتنا الروحية وإثمتنا ورغبنا بشدة في تقويمنا نكون قريبين من الخلاص. نصرخ إلى الله من أعماق نفوسنا: "ارحمي اللهم ارحمني حسب عظيم رحمتك!"، "سامحني وخلصني!" "هبني أن أعرف ذنوبي وعيوبي ولا أدين إخوتي".

مع بداية الصوم الكبير، فلنسارع إلى مسامحة بعضنا البعض عن كل الأذى والإساءات. نرجو أن نسمع دائماً كلمات إنجيل الغفران يوم الأحد: "إِنْ عَفَرْتُمْ لِلنَّاسِ زَلَّاتِهِمْ، يَعْفِرُ لَكُمْ أَيْضًا أَبُوكُمْ السَّمَاوِيِّ. وَإِنْ لَمْ تَعْفِرُوا لِلنَّاسِ زَلَّاتِهِمْ، لَا يَعْفِرُ لَكُمْ أَيْضًا أَبُوكُمْ أَيْضًا زَلَّاتِكُمْ" (متى ٦: ١٤-١٥).